Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

زرت الأقصر فى سنة ١٩٢٤ لمشاهدة قبر الملك «توت عنخ آمون» الذى كان مستر هوارد كارتر (١) ، قد اهتدى إليه وكشف عنه بمساعدة اللورد كارنارفون (٢) ، فزرت فى الوقت نفسه كثيرا من قبور وادى الملوك ووادى الملكات ، وزرت الدير البحرى ومعبد الكرنك . وكنت نازلا فى فندق « ونتر بالاس » فمررت بمعبد الأقصر رائحا وغاديا ولكنى لم أجشم نفسى عناء دخوله . ووقع فى يدى وأنا فى الفندق كتاب « طيبة » Thêbes للأستاذ كابار (٣) » وقيل لى إن ثمنه مائتا قرش فترددت فى شرائه ، ولكنى اشتريته ، ثم عدت إلى القاهرة وفى نفسى من ذلك كله اثر غامض . وقرأت الكتاب فخيل لى أن الآثار التى مررت بها مرور الطير أخذت تتجسم أمام ناظرى رويدا رويدا ، وأن الحياة أخذت تدب فيها ، فتحدثنى عن مجد عجبت من أننى لم أجد فى مدارس الحكومة التى تلقيت فيها تعليمى فى جميع درجاته ما يرشد إليه أو يبعث فى الذهن فكرة عنه .

وحفزنى ذلك إلى زيارة الأقصر مرة أخرى فزرتها فى سنة ١٩٢٦ ، ولكن الزيارة فى هذه المرة لم تكن زيارة مشاهد يريد أن يمتع نظره بمناظر غريبة ، بل كانت زيارة مشوق كان قد فهم بعض الشىء من حياة طيبة ، فكان يهمه أن يدرس ما فيها من الآثار . وعدت من هذه الزيارة وقد ازددت شغفا بمصر القديمة ، فأحسست رغبة قوية فى زيارة المتحف المصرى ، مع أننى كنت قد زرته من قبل مرتين ، فجعلت أزوره من جديد زيارات كان لها فى نفسى معنى جديد .

وتكررت زياراتى للآثار ، وانكببت على المؤلفات التى وضعها علماء المصرولوجيا (٤) فكنت كلما أوغلت فيها شعرت كأن مصر تكبر فى عينى وكأنى أمتلىء بذلك زهوا ، وأخذتنى الدهشة من أننا ونحن أبناء مصر هذه لا نعرف عنها هذا الذى يعرفه الأجانب ، ولا نعجب بها هذا الاعجاب الذى يبذله لها الأجانب ، ولا نغرم بمجدها وتفصى خفاياه هذا الاغرام الذى يقبل عليه ويرتاح له الأجانب .

وكان من الضرورى أن أقرأ هذه المؤلفات ، أو بعضها على الأقل ، مرة وثانية ، بل تالتة فى بعض الأحيان ، فلم أجد فى ذلك كلفة ، ولم ينقص التكرار شيئا من معنى بالقراءه ، لأننى كنت أفهم فى الثانية ما يبهم على فى الأولى ، وأنفذ فى التالتة إلى ما يغيب عنى فى الثانية .

وانقضت سنوات وجاءت سنة ١٩٣٤ ، فكتبت فى « البلاغ » رسائل فى تاريخ مصر القديم كانت لى تجربة أولى ، ثم جذبتنى القراءة وشواغلى الصحفية فانصرفت إليهما . ثم حانت فرصة فى سنة ١٩٣٨ فكتبت فى « البلاغ » رسائل أخرى كانت تجربة ثانية . واليوم رأيت أن أخرج كتابى هذا فأجمع فيه بعض ما كتبته من قبل ، بعد تعديله وتنقيحه ، ثم أضيف إليه بحوثا أخرى .

وتاريخ مصر القديم بحر خضم ، لأنه تاريخ أربعة آلاف سنة أو أكثر ، فليس يوفى حقه فى كتاب ولا فى كتب . وقد كتب فيه العلماء الأجانب بعد كشف اللغة المصرية فى سنة ١٨٢٢ ميلادية ، مئات من الكتب (٥) ، وهم إلى اليوم كلما كتب واحد منهم وجد

---

(١) توفى مستر كارتر منذ عامين (صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٤٠ ـ دار الشعب) .

(٢) توفى اللورد كارنارفون منذ عدة سنوات .

(٣) J. Capart هو مدير معهد الآثار المصرية فى بروكسل .

(٤) يجعل العلماء درس الآثار المصرية القديمة والتاريخ المصرى القديم علما مستقلا يسمونه « ايجبتولوجيا » نسبة الى « ايجبت » أى مصر . فكلمة « مصرولوجيا » هى اذن تسمية صحيحة للعلم الخاص بتاريخ مصر القديم .

(٥) أمامى وأنا اكتب هذه الكلمة جدول بالمؤلفات التى وضعت عن مصر القديمة وتاريخها منذ خمسين سنة فقط باللغات الفرنسية والانجليزية والالمانية والايطالية يصل العدد فيه الى ما يقرب من الف مؤلف . وهذا عن أمهات المؤلفات فكيف بغيرها !

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جديدا ، وكلما ضربت فأسه فى أديم مصر خرجت بجديد . فلا مناص من أن أكتفى فى كتابى هذا بأطراف ، وإذا أراد الله فسأتبع هذه الأطراف بأطراف وأطراف .

* * *

وقد قصصت قصتى هذه فى انسياقى إلى التاريخ المصرى القديم لأنى أعرف أن شيئا منها يوشك أن يكون صورة لما ينشأ عليه — مع الأسف — جميع المصريين . فهم يجهلون هذا التاريخ لأنهم لم يقرأوا منه وقت تحصيلهم العلم غير أشياء ضئيلة مبهمة ، وهم بعد وقت التحصيل لا يجدون فى هذا التاريخ مؤلفات عربية (١) تجذبهم إليه ، وتسد النقص الذى اعترى تربيتهم الأولى فيه . وهكذا ينشأ المتعلمون منا وكل الذى يعرفونه من تاريخ مصر القديم لا يزيد فى مجموعه على مايعرفونه عن اليابان فى آسيا أو عن كندا فى أمريكا . وقد يعرفون عن انجلترا أو من فرنسا فى ماضيها وحاضرها أكثر مما يعرفونه عن مصر . وبهذا تنقطع الصلة بين مصر القديمة ومصر الحديثة ، ويمتنع علينا أن نأخذ من امسنا ليومنا وغدنا . والانسان الذى يعيش مقطوع الصلة بأمسه كالنبات الغريب ينمو ثم يموت وكأنه لم يوجد .

والآراء متفقة على أن التاريخ أعظم مهذب للأفراد والشعوب . فاذا كان هذا التاريخ تاريخ مجد لم يسبقه مجد أمة أخرى ، فهو لأبناء هذا المجد أعظم محى للشعور بالعزة القومية ، وأقوى ملقن للفضائل الوطنية والاجتماعية . ولعل هذا هو بعينه الذى دفع بالانجليز ، حينما كانوا مسيطرين على التعليم ، إلى أن يخرجوا منه تاريخ مصر القديم ، أو بعبارة أدق إلى أن يحبلوه فيه شبحا بغير روح . ولكن هذه السيطرة رفعت منذ سنين ، وصار لنا أن نضع كما نشاء مناهج التعليم ، فحقا إنه لتقصير منا أننا لم نعن بعد عناية جدية بسد هذا النقص المعيب .

وأنا أعرف أن علم الآثار صار يدرس فى جامعة فؤاد الأول منذ بضع سنين ، وأن وزارة المعارف بعثت وقتا ما بعثة إلى المانيا تخصص أفرادها فيه . ولكن أين هذا من العناية الواجبة بالتوسع فى تدريس التاريخ المصرى فى المدارس الابتدائية والثانوية والعالية ؟ وأين هذا من مئات المؤلفات التى يجب أن توجد فى هذا التاريخ باللغة العربية ؟

إن الناشىء فى انجلترا أو فى فرنسا أو فى المانيا أو فى غيرها من البلاد الراقية ينشأ وتاريخ بلاده يسايره فى كل سنة من سنى تعليمه . فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تكون نفسه قد انطبعت بطابع مافى هذا التاريخ من عظمة وجمال . ومن هذا الانطباع ينولد حب خاص للوطن ، وتنولد رغبة فى محاكاة أبطاله ، وينمو تبعا لذلك الشعور بالقومية ، وتتربى أو تقوى فضائل الاقدام وسمو النفس ومجالدة المخاطر والميل إلى طيب الأحدوثة . ومن عجيب أمر التاريخ أنه يولد هذه الفضائل كلها سواء أكان تاريخ مجد وبسطة فى الغنى والسلطان ، أم كان تاريخ مناعب ومكاره وآلام . وقد عرفت الأمم الرافية ذلك فجعلت من تاريخها القومى أول عامل فى تربية الفضائل النفسية وإبراز صفات الرجولة . أما نحن فقد جهلنا هذا فصار الناشىء منا ينشأ وهو لا يرتسم فى ذهنه عن مصر القديمة غير خيال مبهم ، وإذا اتفق له أن عرف شيئا عنها فليس هذا الشىء سوى صورة مسوهة نختلط فيها الخرافات بالأخطاء ، وبذلك يفقد التاريخ المصرى روحه ، وينعدر عليه أن يتحدث إلى النفوس حدينا يقومها ويربى الفضائل فيها .

* * *

وقد ذكرت الخرافات والأخطاء التى تشوه التاريخ المصرى ، فأذكر هنا أن الخرافات هى الصورة التى يغلب أن ترتسم فى الذهن كلما ذكر المصريون القدماء ، وذلك لأن الكتاب اليونانيين والرومانيين الذين زاروا

---

(١) لا يفوتنى هنا أن أشير الى المؤلفات التى تركها العالمان احمد كمال باشا واحمد نجيب بك وهى مؤلفات نافعة فى ذاتها ولكنها صارت قديمة فصار الانتفاع بها محدودا . ولا يفوتنى أن الدكتور حسن كمال عرب كتاب «تاريخ مصر» للعالم J. H. Breasted وهو من الكتب النفيسة فى موضوعه . ولا يفوتنى أخيرا أن بعض الموظفين فى المتحف المصرى اصدروا فى السنين الاخيرة كتبا عالجوا بها نواحى من التاريخ المصرى القديم . ولكن هذا التاريخ يحتاج الى عشرات وعشرات من الكتب لا الى هذا العدد القليل منها .